مراجعة كتاب...
«فلسطين أربعة آلاف عام في التربية والتعليم»

مراجعة : جوني منصور
محاضر ومؤرخ
حيفا-فلسطين

تاريخ النشر : 2026/03/20 (العدد (30) ، ربيع 2026)

المؤلف : نور مصالحة

ترجمه عن الانكليزية : فكتور سحاب

سنة النشر : 2024

دار النشر : مركز دراسات الوحدة العربية

حجم الكتاب : 510 صفحة من القطع العادي (24سم × 17سم)

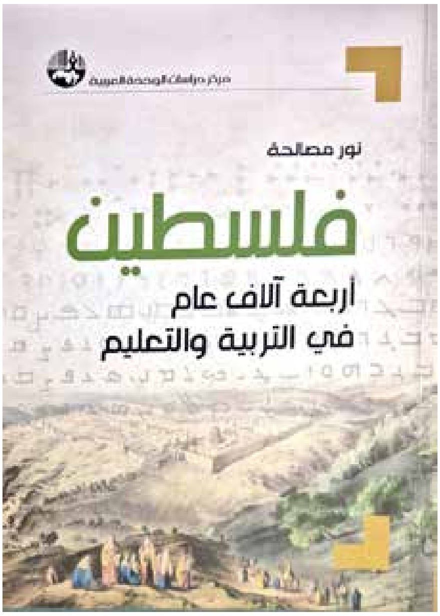

أ . د . نور مصالحة ، مؤرّخ وأكاديمي وكاتب فلسطيني من مواليد قرية دبورية في الجليل (فلسطين) . أشغل في السابق مدير مركز الدين والتاريخ في جامعة سانت ماري في لندن ، وهو حاليًا عضو في مركز الدراسات الفلسطينية في كلية الدراسات الشرقية والإفرقية التابعة لجامعة لندن . من مؤلفاته : «فلسطين أربعة آلاف عام من التاريخ» ، و«التاريخ الشفهي للنكبة الفلسطينية» بالاشتراك مع نهلة عبده ، و«نكبة فلسطين : إنهاء الاستعمار في التاريخ» .

أما الكتاب قيد نقاشنا وقراءتنا فهو مكون من أحد عشر فصلا ، ولكل فصل عناوين فرعية ، بالإضافة إلى مقدمة طويلة وخاتمة . وألحق بالكتاب قائمة مراجع تفصيلية . وهذه عناوين بعض

الفصول : الفصل الأول : معرفة القراءة والكتابة وجانبها العملي ؛ مدارس الكتبة في فلسطين القديمة . الفصل الخامس : عصر معاهد الفقه الإسلامي في القدس . الفصل التاسع : التربية الانسانوية والنهضة العربية : خليل السكاكيني وإصلاح التربية الفلسطينية . الفصل الحادي عشر : ىبين المهنية والوطنية الثقافية ؛ التربية الفلسطينية في فلسطين زمن الانتداب (1918-1948) .

تنطلق مقدمة مؤلف الكتاب بفقرة نرى فيها زخمًا فكريًا وبوصلة توجه سير وتطور هذا البحث الفريد من نوعه في مجال دراسة حقل التربية والتعليم ، من وجهة نظر تاريخية وفكرية وثقافية واجتماعية ، في خضم التحولات السياسية التي مرّت على فلسطين منذ أربعة آلاف عام . يقول مصالحة : «فلسطين ، بين بلدان الكرة الأرضية كلها ، كما يذكرنا الناقد الأدبي إدوارد سعيد ، هي أحد أكثر الأماكن إشباعًا من حيث الثقافة والسمة الدينية . وفلسطين هي التي تقع في قلب الهلال الخصيب –مهد الحضارات- وعلى مفارق طرق التجارة القديمة . كانت ، وكان الفلسطينيون ، على صلة وثيقة بالكتابة الأبجدية الباكرة ، وبالكثير من الثورات الفكرية في الآلاف الأربعة الماضية من السنين» .

وعند الحديث عن مجال التربية والتعليم في فلسطين فإنّنا نتحدّث عن ثراء المادة التعليمية الفلسطينية وتنوعها عبر قرون ، لا بل عبر ألفيات من سنوات مضت . وهذا يعني إعادة صياغة المعرفة التاريخية المرتبطة بالتعليم . وعملية إعادة الصياغة هذه هي عمليًا الرّد على الذرائع والحجج التي تطرحها وتبثّها الصهيونية بأنّ فلسطين قد تمّ تجهيزها لشعب بلا أرض ، وأنّ الفلسطينيين لا يملكون شيئا في هذه الأرض ، أو بالتحديد أنّ فلسطين بساكنيها الفلسطينيين هي أمّية .

لكن علينا أن نعرف جيدًا حقائق ، لا لبس فيها ولا يمكن إخفاؤها ، بأنّ فلسطين هي أرض وشعب ، وهذا صحيح ، لكنها أيضا جامعة لاتباع ديانات ومعتقدات مختلفة ، إلى جانب حضارات متواترة ذات تنوع هائل فكريا وثقافيا واجتماعيا وقيميا . وهذا كله تراكم عبر الزمن ليُشكل فلسطين الفكر والتربية والتعليم .

ونتج عن تراكم الخبرات الحياتية والتعليمية وتلاقي الحضارات ، ولادة مدارس فكرية فلسطينية لم تنظر إلى الانتماء العرقي والديني . كان الهدف هو انتاج فكري وثقافي ميّز فلسطين وشعبها عبر الازمان . فالمنهج التعليمي شمل حفظ نصوص أدبية وقصائد حسب اللغة الاكثر انتشارًا وشيوعًا . فمن الأمور الغريبة واللطيفة في الوقت ذاته أن عثر علماء الآثار على نسخ من ملحمة جلجامش الشهيرة في مجدو قرب مدينة الناصرة . وجلجامش هي جزء من مكون الثقافة العراقية أو كما تعرف بثقافة بلاد ما بين النهرين(دجلة والفرات) . وهذا يعني أنه في سياق الحديث عن التعليم في فلسطين يتم ذكر الحضارات والثقافات التي مرّت على فلسطين وتركت بصماتها وآثارها .

صحيح أنّنا نقبل فكرة أو طرح وجود ثقافة مشتركة عابرة للمناطقية/والاقليمية ، وساهمت الحركة التجارية إلى جانب نمو وتطور الحركة العلمية في ترسيخ أسسها وجذورها .

وهذه الثقافة كونت ثقافة مدن ، وهذه المدن احتضنت العلم في أروقتها وصالاتها ومكتباتها . فقيسارية إبنة الساحل الفلسطيني شكلت حاضرة للعلم ، كما أنّ غزّة في أقصى جنوب الساحل الفلسطيني دمجت ومزجت التجارة بالثقافة والفكر بحياة الرهبنة التي انتشرت على يد الراهب ايلاريون .

وعليه ، ندرك تمام الإدراك أنّ مركزين هامين تشكلا في فلسطين على طول الساحل الفلسطيني هما قيسارية بمدرستها ومكتبتها ومعلميها وغزّة أيضًا ، على مثال (أو دعونا نقول متنافستين مع) اثينا والاسكندرية .

ففي غزّة تمّ تأسيس مكتبة احتوت على الأدب الكلاسيكي وفي اروقتها تحاور المفكرون والأدباء والمؤرخين طارحين مواضيع نقاشية هامّة جدًا في مفاهيم ذاك الزمن من القرون الاولى بعد حساب الميلاد . ولقد سميت غزّة بـ «اثينا آسيا» ، وهذا ما يؤكد دورها ومكانتها وآثارها .

وفي غزّة ، وفقًا لما كتبه مؤلف الكتاب ، نشأت وتطورت النخب المسيحية المتعلمة ، ممّا شكّل نقلة نوعية فيما بعد لأسس الفكر المديني الاسلامي ، وتحديدًا بعد انتشار الاسلام دينًا وفكرًا وعلمًا وثقافة .

ويورد مصالحة اسماء أعلام فكر وثقافة في ميادين مختلفة ، فمن بين هؤلاء اورجانوس الذي قاد بنفسه نهضة فكرية داخل الكنيسة وخارجها في القرن الثالث للميلاد . حيث انتشرت الثقافة الهيلينية التي وجدت لها في غزّة حاضنة دافئة ، جمعت ثقافات متعددة ومفكرين من اصقاع مختلفة ، بما فيهم المفكرين اليهود الذين لعبوا دورا مهمًّا في عملية التأليف وفي عملية النقل والترجمة .

وهذا ما يفسّر لنا مزاعم الصهيونية في العصر الحديث أنّها مجرّد مزاعم وليست حقائق على أرض الواقع . يقول مصالحة : «ودحضًا للرؤية التقليدية التي تدعيها مزاعم السردية الصهيونية عن فلسطين ، بأنّها طوال قرون ، كانت مجرد «ثقب أسود» من الهباء ، العديم القدرة على القراءة والكتابة ، والمفتقر إلى الثقافة الأدبية ، فإنّ سردية هذا الكتاب عن التاريخ الثقافي الفلسطيني تثبت أنّ فلسطين لم تكن «أرضًا مقدسة» فحسب ، في ما عُرِف بالديانات الموحدة الأربع (الإسلام والمسيحية واليهودية والسامرية) ، بل هي تطورت ايضًا لتُصبح موقِعًا رئيسًا بين القارات للعلوم الكلاسيكية وانتاج المعارف : الإغريقية والسُريانية والعربية والعبرية واللاتينية ، وغيرها . علاوة على هذا ، التاريخ الثقافي الفلسطيني ، يثبت انّ العلم والبحث الفلسطينيين متجذران عميقًا في الماضي

البعيـد» .

وفي نقلة نوعيـة إلـى القرنـين الـ 19 و الـ 20 نتلمّـس طريق فلسـطين نحـو النهضة العربية أسـوة بشـقيقاتها ونحـو الحداثـة . حيـث لـم تغـب النهضـة والحداثـة عـن الفلسـطينيين . ولنـا مثـال واضح المعالـم في هـذا الطـرح شـخصية وأعمـال خليـل السـكاكيني .

لقـد دافـع السـكاكيني عـن العربيـة لغـة وثقافـة وفكـرًا ونهـج تربيـة وحيـاة . رأى في العربيـة روحًـا وطنيـة واساسـا للتسـامح الدينـي ، ودعـا إلـى تعليـم المـرأة في وقـت مبكـر قبـل بلـدان عربيـة أخـرى . وآمـن السـكاكيني بالتعليـم المفعـم بـروح الفـرح وليـس التعليـم الجـاف الخالـي مـن الأمـل . التربيـة علـى الفـرح هـو ليـس مفهـوم تعريفـي ، بـل طـرح تطبيقـي مـن خـلال الموسـيقى والغنـاء ونبـذ الحـزن الـذي يكـدر نفسـية الطالـب .

ووسـط سـير فلسـطين لتشـق طريقهـا نحـو الحداثـة في ميادين مختلفـة ليـس بمِنّـة مـن الدولـة العثمانيـة التـي كانـت تعيـش لحظاتهـا الاخيـرة قبـل احتضارهـا ، ولا بفضـل الاسـتعمار البريطانـي المرتـدي ثـوب الرجـل الابيـض المليـئ بالانسـانية والقيـم والاخـلاق المظهريـة ، ولا بمزاعـم الصهيونيـة انهـا جـاءت الـى فلسـطين لتزهـر الارض وتحولهـا الـى خضـراء بـذكاء اليهـودي المسـتعمر ، وإنمـا بفضـل رجـال ونسـاء فلسـطين الذيـن تدفقـوا إلـى طلـب العلـم ، وتشـهد علـى ذلـك أعـداد المـدارس التـي نشـأت في القـدس ويافـا وحيفـا والناصـرة وبيـت لحـم وطبريـا وصفـد والرملـة وغـزّة ونابلـس ورام الله . نحـن نتحـدث عـن مئـات المـدارس التـي شـيّدتها المؤسسـات الكنسـية سـواء الوطنيـة أو تلـك التبشـيرية ولا يُخفـى دور الاوقـاف الاسـلامية في هـذا المجـال ، بالإضافـة إلـى مبـادرات لإقامـة مـدارس سـعت إليهـا جمعيـات المجتمـع المدنـي التـي انتشـرت في مـدن وقـرى فلسـطين .

أسّـس السـكاكيني المدرسـة الدسـتورية في القـدس في 1909 ، ويؤكـد مصالحـة في كتابه هذا أنّ السـكاكيني سـبق باولـو فريـري في تنميـة الوعـي وتجذيـر الفـرح ، الـذي أشـرنا إليـه أعلاه ، مـن خـلال التعليم .

ولا يرتبـط التعليـم في مسـاحات محـددة تمّ تعريفهـا بــ «مـدارس» ، بـل انتشـر التعليـم بواسـطة فعاليـات ونشـاطات حياتيـة جاريـة مثـل المقاهـي ، وخصوصـا تلـك التـي انتشـرت في مدينـة القـدس . لقـد عاشـها السـكاكيني ومـارس انشـطتها كلعـب طاولـة الزهـر وتدخـين الاركيلـة واحتسـاء القهـوة . في هـذه المقاهـي العامـة تنتشـر اخبـار المدينـة الاجتماعيـة والسياسـية والثقافيـة . وطبعـا الاحاديـث الجاريـة التـي تُشـكل هـذا المشـهد التعليمـي . فمؤسسـة المقاهـي في العالمـين العربـي والاسـلامي جاذبـة للنـاس ومـن كل الطبقـات ، حتـى لـو تمّ فرزهـا اجتماعيـا ، بمعنـى هنـاك المقاهـي للنخبـة الثريـة وتلـك للنخبـة المثقفـة وأخـرى لعامـة النـاس . ولـكل طبقـة ثقافتهـا وتعليمهـا المنتقـل شـفاها مـن جيـل الـى جيـل . حتـى الحكاواتيـة الذيـن انتشـروا في القـدس ومـدن اخـرى في فلسـطين لعبـوا دورا تربويـا وتعليميـا مهمـا في نقـل

الثقافات والمرويات سواء المنتمية الى الثقافة العربية أو تلك المنقولة عن ثقافات وحضارات أخرى . هنا في المقاهي دارت نقاشات سياسية ودينية واجتماعية . المقهى في حدّ ذاته هو مساحة جيدة لمناقشة الشأن العالمي وايضا لتبادل المعلومات والتفاصيل .

وحين نتطرق إلى تعليم المرأة ، التي وصفه الغرب بأنّه شبه مستحيل معتبرًا انّ الروح الشرقية اصدرت حكمها على بقاء المرأة ضمن جدران البيت ، لا في الحيّز الحياتي العام . لكن ، شهدت فلسطين ولا تزال حركة تعليم مبهرة للمرأة ، حتى أنّ تعليم المرأة كان مشمولا ضمن اعمال مدرسة اوريجانوس السابق ذكرها في القرن الثالث للميلاد . وايضا مدينة نابلس لعبت دورا في التعليم من خلال مدرسة جوستين .

والمدارس التي تأسست في القدس في الفترتين الايوبية والمملوكية ومن ابرزها المدرسة الخاتونية والصلاحية . وفي عصرنا مشاركة نساء من بير زيت في تأسيس مدرسة تحولت مع الزمن لتكون جامعة بير زيت ذات الاسم الذائع الصيت .

ولن يغيب عن بالنا صورة هند الحسيني التي قامت بدور مشهود له في التاريخ الانساني ، حيث انها لم تحتج إلى أي طلب يوجه إليها للقيام بعمل انساني واخلاقي ، فبادرت الى تجميع عدد كبير من أبناء دير ياسين اليتامى في اعقاب المجزرة الرهيبة التي تعرّضت لها قريتهم في النكبة الفلسطينية الكارثية في عام 1948 . قامت الحسيني بتأسيس دار الطفل العربي لجمع الايتام وتوفير بيت محب لهم ، ولكن إلى جانب ذلك أسست مدرسة لتعليمهم .

وهناك ضرورة ماسة لذكر المدرسة الاحمدية الاسلامية في عكا التي تتلمذ بين اروقتها مئات من المسلمين الذين خدموا التربية والتعليم لفترات طويلة في فلسطين وخارجها . وهم يشبهون تلاميذ جامع وجامعة الأزهر في القاهرة بمصر . ونأتي على مدارس تيراسنتا في القدس ويافا وحيفا والناصرة وسواها .

«لم تكن فلسطين «بلاد أميين» ، كما يكتب مصالحة في مقدمة كتابه . فالتعليم بكافة مركباته هو إحدى المهن القديمة في فلسطين . وهذه هي أسس حياة الفلسطينيين ان يبذلوا الغالي والنفيس من اجل توفير قسط من التعليم لابنائهم وبناتهم .

صحيح أنّ التربية والتعليم تراجعت او خفتت جذوتها ، إلّا أنّ الصحوة او اليقظة عادت مع نهاية العصر العثماني وبداية الاحتلال (الانتداب) البريطاني . وساهمت في ذلك انتشار الطباعة التي شكلت نقلة نوعية في ميدان التعليم . تأليف الكتب التعليمية والادبية والفكرية . الترجمة عن لغات أخرى كالروسية والفرنسية والايطالية وغيرها . الصحافة التي انتشرت بصورة غير مسبوقة في اي بلد عربي آخر . وبالتوازي شهدت فلسطين تطورا في حركة النقل والمواصلات كمد الخط الحديدي الحجازي وهذه بدورها ساهمت في نقل الثقافة بمكوناتها المختلفة إلى فلسطين ومن

فلسطين الى سائر بلاد الشام ومصر وغيرها .

ويستعرض مصالحة اسماء عشرات المدارس التبشيرية في المدن والبلدات الفلسطينية وانشاء المكتبات فيها أو بصورة مستقلة وتنوع الثقافات التي حملتها هذه المدارس وانتشار اللغات الاجنبية التي كان لها دور في نقل ثقافي مميز .

ومهما تحدثنا عن مشاهد الثقافة في مدن فلسطين ، فإنّ التركيز موجه نحو القدس التي نمت بصورة ملحوظة باتجاه اعتبارها مركزًا حضريا حديثا بالرغم من تصويرها او اعتبارها مدينة ملتحفة بالكلاسيكية والانغلاق في بعض مفاصل حياتها . لهذه المدينة دور مركزي في التعليم وبالتالي الامتداد نحو محيطها القريب . فمدارس فلسطينية تحولت الى جامعات كمدرستي النجاح وبير زيت . وهنا لن يخفى علينا مثلا الدور الذي لعبته الجمعية القيصرية الروسية في اقامة المدارس في القرى واقامة كليات للتعليم في الناصرة وبيت جالا ، والاهتمام بتعليم المرأة . وكنتيجة لهذا التعليم وجدت نساء كثر انفسهن في خضم المشهد الحياتي المتعدد المواضيع . فهذه كريمة عبود نموذج لمصورة فوتوغرافية ميدانية وليست مصورة ستوديو ، وهذا يعني انها ترى ما يجري في ساحات المجتمع الذي تعيش فيه .

هذا التلاقح الثقافي والتلاقي الحضاري ما كان ليحدث لولا رغبة وشغف الفلسطينيين للتعلم . ومن هذا الشغف واللهفة تعرّف الفلسطينيون على ثقافات أُخرى غير العربية كاللاتينية والفرنسية واليونانية والروسية . بمعنى آخر أنّ للترجمة دور مهم جدًا في مسيرة التربية والتعليم ، فالتربية والتعليم ليست مقصورة على المدرسة . إنّها عملية تلاقي مع ثقافات أخرى ، كما فعل خليل بيدس ابن القدس وصاحب مجلة النفائس العصرية الذي قام بترجمة الادب الروسي إلى العربية فكان حظ الفلسطينيين ان انكشفوا على هذه الثقافة كما الثقافات الاوربية الاخرى كالفرنسية والانكليزية والايطالية .

ويكتب مصالحة في سياق مقدمته هذه العبارة الرصينة أُسوة بغيرها بطبيعة الحال :»تبقى التربية اليوم حاجة وجودية لبقاء الفلسطينيين ؛ مع وجود نحو نصفهم جميعا في المنفى(ولا تسمح لهم اسرائيل بالعودة الى وطنهم)- ومع كون نحو نصف الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة وفي قطاع غزة تحت سن الخامسة عشرة ، فليس أمرًا مفاجئا أن يكون نصف هؤلاء في الضفة وقطاع غزّة يرتادون مدارس نظام التعليم العام أو العالي ، إما تلامذة أو طلابا او مدرسين» .

وفي الختام ، نقول بأنّ هذا الكتاب ليس بحثا تأسيسيًا فحسب بل هو شهادة فلسطيني منحاز لقضيته وتاريخه يربط حاضره بماضيه البعيد من الناحيتين الزمنية والفكرية ، مبيّنا تراكمية الفكر وانتاجه لخدمة الانسانية اولا وآخرا . فالتربية والتعليم في فلسطين انسانية قبل ان تكون وظيفية مجندة لقضية سياسية ، وبحق .